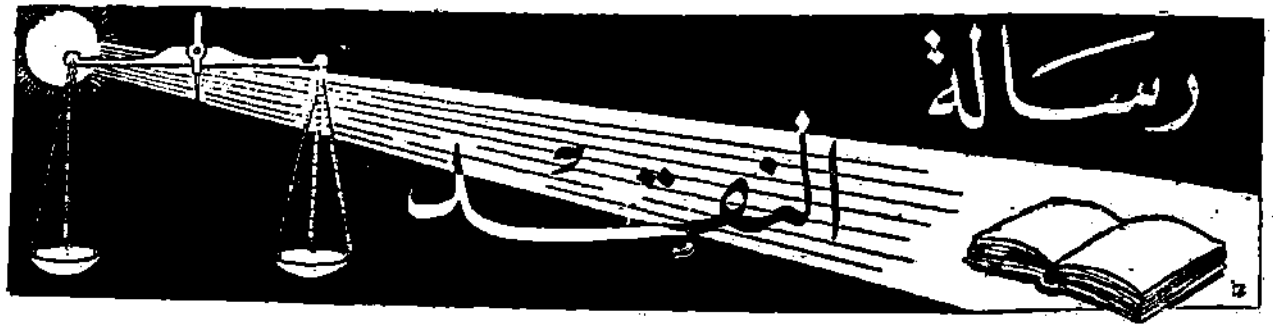

أبو تمام والمقتطف

لأستاذ جليل

قالت مجلة (المقتطف)[1] الغراء في حديثها عن كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي : « أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي ، خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه ، وساعد في ذلك وجود البحتري فناصره الناس ، وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه ، وطالت الخصومة ، وكسب الأدب منها ما كسب من كتب النقد ، وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) الذي ناصر فيه مؤلفُه البحتري

* * *

قول المقتطف : (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسي) فيه بعض التسامح ، فما كان حبيب أميراً من الأمراء ، وما ترفعه عندنا إمارة ، ولن تخفضه قروية ؛ وفلاح عامل أو عالم خير من آلاف من أمراء أغبياء كسالى ، وقد كان ابن أوس فلاحاً ابن فلاح من قرية جاسم

* * *

قول المقتطف : (خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه) فيه لبْس كثير ، فقد جاء أبو تمام بما جاء به ورأى الناس إبداعاً ونبوغاً وعبقرية فبهرهم ذلك واستجادوه واستجزلوه وتقبلوه (ولم يخرجوا على صاحبه) ولم ينكر ذلك الشعر العُلْوي[2] العبقري ولم يعبه إلا جاهل أو حاسد أو عدو . ومتى تخلص النابغون أو العبقريون من مناكرين ومعادين ؟ وإن عاب الطائي مثل ابن الأعرابي ودعبل فقد أجله أيما إجلال مثل المبرّد وابن الزيات . وقصة أرجوزة حبيب وابن الأعرابي (وهي مشهورة) تبين مقدار العداوة إذا اشتدت وجارت . ودعبل، أقواله وأهاجيه مساخر دعبلية ... وقد أعلن أبو الفرج في كتابه (الأغاني) والصولي في (أخبار أبي تمام) مقاصد ناقدين في نقدهم جبياً . قال أبو الفرج : « هم أقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل إنهم لم يبلغوا علم هذا وتميزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب» وقال الصولي : « صنف أَلِف في الطعن عليه كتبا ليجرى له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة ، ومكسب بالخطأ إذ حُرِمَه من جهة الصواب » وإن شاعراً أهمل في زمانه خمسمائة شاعر — إلا واحداً — كلهم مجيد لا يبتدع أن يعاديه معادون ، وينبحه شويعرون ، وينفر عليه ويغلى شعراء مبرزون . ومن يقرأ شعر ابن الرومي في البحتري يستعجب ويستغرب في الضحك ، يقول في مقطوعة خلاصتها : « أن الشاة لا تجزع من ألم الذبح ولا السلخ لكنها تشفق أن يكتب في جلدها شعر البحتري»

* * *

قول المقتطف : « فناصر الناس البحتري وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبي تمام وتعمقه » هذا القول هو الظلم العبقري[1] ، وللمعاظلة معانٍ كلُّها شر ؛ والتعمق هنا هو التنطع . وهذا تصوير لشعر ابن أوس مستَشنَع ، ووصف منكر . ولو قالت (المقتطف) وفضلوا رقة البحتري على جزالة أبي تمام لا قتربت من الحق ، فقد قال صاحب (المثل السائر) : « اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ؛ ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا

(١) جزء دسمبر ٣٧ (٢) شعر علوي : عالي الطبقة

(١) الظلم العبقري : الشديد قال : ظلم لعمر الله عبقري

خيولهم ، واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى [1] » وهي طبيعة المرء (أو مزاجه) تدعوه إلى طريقة في القول بل عقيدة في الدين فيستقيد لها ويستجيب . ولن تضير ذا الرقة رقته ، ولن تعيب ذا الجزالة جزالته ؛ وقوة حبيب ماحرمته لطفاً ، وسهولة البحتري ما منعته فحولة . فوصف صاحب المثل هو قول عدل في شعر الطائيين من جهة الألفاظ ؛ وأما من جهة « الاستخراجات اللطيفة والمعاني الطريفة » كما يقول المبرد أو لطف المعاني وسموها أو العبقرية الشعرية ، فالبحتري دون أبي تمام ، والوليد في ذلك تلميذ حبيب . وما أصدق البحتري إذ يقول : « أنا والله تابع لأبي تمام ، لائذ به ، آخذ منه ، نسيمي بركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه [2] » وفي (الموشح): « سرقات البحتري من أبي تمام نحو خمسمائة بيت » وعندي أنها أكثر مما قال . وهنا نكتة تروى في هذا المقام : رآني ذات يوم أديب شاعر أقرأ في كتاب فقال : ماهذا ؟ قلت : شرح ديوان أبي تمام . فلما أبصر الكتاب وعرفه قال : هذا ديوان البحتري. قلت : نعم . ففهم النكتة . وليس القصد من هذا الكلام تنقص البحتري وتهجينه ، بل تقرير الحق وتبيينه . والبحتري هو صاحب القول الطل الجميل ؛ وهو في الشعر العربي ثالث ثلاثة ماجاء قبلهم ولا بعدهم مثلهم . وأستاذ الاثنين — على إبداعهما وعلوهما — هو حبيب . وإن شئت فقل كما قال المتنبي : « حبيب أستاذ كل من قال الشعر بعده [3] » وأبو الطيب يدري بما يقول ، ويعرف ما يعني ، وهو خريجه وإن لم يَحْثُ بين يديه ، ومعاني أبي تمام في أبيات المتنبي سوافر غير متلثمات ، ينطقن بالحق فصيحات

وعناية حبيب بألفاظه مثل عنايته بمعانيه لا كما جاء في (موازنة الآمدي) : « إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه ، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوى » فإن هذا قول باطل ، الحق يعانده ، والأدلة تدحضه ، وسبك حبيب العجيب يكذبه ؛ فليس في العربية شاعر احتفل في المعنى واللفظ معاً احتفال أبي تمام ، فهو إذا غزا المعنى العالي أنزله من اللفظ في خير مكان ؛ فهو محكم المعنى مرصّن اللفظ « وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً ؛ وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الأطمار الرثة » [1] . وفي (العمدة) لابن رشيق قال : «قال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب : إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ؛ وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع »

وقد حقق حبيب جل شعره ، وأحكم نظم أكثره ، وله المتوسط ، وله الردىء ، والجيد جيد ، والغث غث ، فصف كلا بصفته ، ولا تلبس الحسن بالقبيح ، وخذ الطيب وذر الخبيث ، « وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه » كما قال أبو الفرج

* * *

قول المقتطف : (وكان مما كسبه كتاب الصولي الذي أراد به الانتصار لأبي تمام على كتاب الآمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري) فيه تسامح كثير ، فقد ألف الصولي كتابه والحسن ابن بشر الآمدي شاهد لم يجادل ولم يوازن ولم يؤلف شيئاً . وليس في الكتابين دليل على أن أحدهما قصد مناقضة الآخر . فالصولي ينعى على جماعات مقالات لهم زائغة ، والآمدي يوازن بين الطائيين وضلعه مع الوليد على حبيب . وممن يعنيهم الصولي أدعياء في الأدب أو علماء من دعاة القديم ، والآمدي أديب يكبر الشعراء المحدثين .

* * *

المقتطف بجلة أجلها ، وكيف لا أعظم صحيفة كريمة منشئها علامة العرب ومعلمهم (الدكتور يعقوب صروف) لكنها قالت فقلت

قارىء

(١) راجع (زهر الآداب) الثالث ، (الصفحة ٢٠) : (أبو تمام والبحتري) فهناك حديث طريف يبين شيئاً من قدر حبيب

(٢) الموشح للمرزباني (٣) الصبح المنبي

(١) العقد ، والعبارة الأخيرة من قول أبي تمام :
كسيت سبائب لؤمه فضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأطمار